الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

آمال يحققها الهلالي باشا

إن قراء الرسالة عرفوا ما انتهت إليه قضية المدرسين بالمدارس الحرة ، فقد نشرت الجرائد اليومية خلاصة الخطاب التي ألقاها رقمة النحاس باشا ومعالي الهلالي باشا وسعادة الدكتور طه بك حسين ، ونقل المذياع هذه الخطب إلى جميع الأسماع

وأقول إن الذي يجب تسجيله هو تحقيق آمال المدرسين بالمدارس الحرة بعد أن كان تحقيقها من رابع المستحيلات ، فهذا الوزير نفسه كان يستصعب حل هذه القضية ، بدليل أنه لم يحلها في الوزارة الماضية ، ولو لم يوفقه الله في هذه المرة لظلت تلك القضية عقدة العُقد ومشكلة المشكلات إلى آخر الزمان

كان الأمل الذي أطمح إليه هو تعيين المدرسين بالمدارس الأجنبية على وظائف تذكارية ، كالذي نصنع في معاملة المدرسين الذين نرسلهم إلى الأقطار العربية ، وقد كتبت في تزكية هذا الاقتراح عدة تقارير ، منها تقرير نشرته مجلة الرسالة منذ سنين بإمضاء مجهول

كان اقتراحي يبدو وكأنه طيف الخيال ، ولم أكن أصدّق أنه سيتحقق ، ثم كانت المعجزة الطريفة ، وهي جعل المدرسين جميعاً في منزلة واحدة ، بلا تفرقة بين المدارس الحرة والمدارس

وأعترف بأني أكاد أكذّب ما قرأت وما سمعت ، فهل من الحق أن وزارة المعارف رضيت وهي طائعة مختارة أن تجعل مدرسي المدارس الحرة في منزلة مدرسي المدارس الأميرية ؟

أنا لا أصدّق ، فالمألوف أن تجود الحكومة بالخير بعد أن تُدمى إليه ألوف المرات ، ومدرسو المدارس الحرة لم يطلبوا يوماً مساواتهم بمدرسي المدارس الأميرية في جميع الحقوق ، وإنما طلبوا حقوقاً سهلة هينة لا تزعج وزارة المعارف ، وهل طلبوا غير الترفق في تحديد المرتبات ، وكانت من الضآلة بمكان ؟

لأول مرة في تاريخ الحكومة المصرية يُبذَل الخير لمن لم

ثم ينتقل من هذا إلى الدولة وتطوراتها وعمرها واتساع نطاقها ، ثم ما قرره ابن خلدون عن الحروب وأصلها والجيوش ومراتبها ودواعي الانتصار أو الهزيمة وما يتصل بالدفاع عن الدولة ... على أن أبدع فصول هذا الجزء — ولعل ذلك في رأيي — هي هذه التي تناول فيها الأستاذ المؤلف شرح آراء ابن خلدون وتحليله للنفس الإنسانية — وهو ما أؤكد للأستاذ أنه متأثر فيه أيضاً بآراء إخوان الصفاء — ثم هذه اللمحات الفريدة عن التربية والتعليم فيما يرى ابن خلدون وما جمعه الأستاذ المؤلف من المعلومات الطريفة عن أحوال التعليم في عصره ، وما كان من حرية التعليم والتدريس وأنواع المساجد ، وعدم إشراف الحكومة الرسمي على التعليم إلا في حدود « الحسبة » التي وصفها ابن خلدون بأنها « وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وأن من اختصاص موظفي الحسبة « الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها ، في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ! » ... وأن مهنة التعليم في عهد ابن خلدون كانت من مهن المستضعفين ؟ ! (ولا حول ولا قوة إلا بالله يا إخواني المدرسين ! » ، ومذاهب كل من الأقطار الإسلامية في تعليم الولدان ... إلى آخر ما لا يتسع المجال لذكره هنا مع طرافته وإمتاعه ...

* * *

وبعد ... فلا بد من كلمة عن عدم العناية بمراجعة الكتاب أثناء الطبع . ذلك الأمر الذي أذاع في جوانبه الخطأ المطبعي ، ولم يسلمه من وقوع بعض التعبيرات التي انزلقت إلى انحرافات نحوية كان من الممكن تجنبها لأنها تعد من الهنات ، بل من الكبائر ، التي لا يصح وقوعها من كبار مؤلفينا ، وزعماء مفكرينا ... ولسنا نرى داعياً إلى ذكر شيء من هذه الانحرافات ، رجاء أن تنتهي الحرب قريباً فيطبع الكتاب طبعة أنيقة تليق بما يحمل من مادة خصبة وعلم غزير ... هذا ... وقد ابتدع الأستاذ المؤلف اشتقاقات ، ونحت نسَباً لا نرى ضيراً في إقرارها ، وإن ثقلت في السمع أول الأمر ، وذلك كعضواني ونفساني ، والنظرة الحياتية — أي البيولوجية ، والفلسجة الاجتماعية ، ومرفجة المجتمع Morphologie والسير العقلاني Rationaliste ... الخ ... إن لم يضع مجمعنا اللغوي كلمات أجود منها لمرادفاتها الأفرنجية .

دمنهور

زكي مبارك

يطلبوه ، وهذه أريحية جديدة لم نعرف لها مثيلاً فيما سلف من العهود

الهلالى باشا يقول إن النحاس باشا هو صاحب الفكرة ، والنحاس باشا يقول إن الهلالى هو صاحب الفكرة ، والنتيجة معروفة ، وهى أن هذين الرجلين يتسابقان إلى الخير تسابق الجياد ، أعزهما الله وكتب لهما دوام التوفيق

حكومة تثأر للأمة

قال الهلالى باشا فى خطبته إن الأمة كانت أسبق من الحكومة إلى نشر التعليم ، وتحدث عما صنع مصطفى كامل وسعد زغلول ، ولم يفته النص على جهود الجمعيات الخيرية وجهود الأفراد ، وهذه الالتفاتة هى أجل ما ورد فى خطبة الهلالى باشا ، لأنها صورت هذه الوزارة بصورة الحكومة التى تثأر للأمة ، وهذا معنًى جديد ، فقد كانت الحكومة تنظر إلى الأمة بمنظار يعفّ قلمى عن وصف مرآه الجميل !

تاريخ الجامعة المصرية

تحدث الهلالى باشا عن الجامعة المصرية الأولى ، الجامعة التى أنشأتها الأمة ، وقال إن حكومة ذلك العهد كانت تحارب الجامعة بحجة أن مصر لا تحتاج إلى جامعات وإنما تحتاج إلى كتاتيب !

فهل يذكر الهلالى باشا قيمة الإعانة التى كانت تقدمها وزارة المعارف إلى الجامعة المصرية بألفين اثنين من الجنيهات ، ومع هذا كانت تماطل فى الدفع ، والشواهد تحت يدى ، وسأقدمها إلى معالى الوزير إن أراد

لا موجب للتذكير بهذا التاريخ ، فما تمثلته إلا توجعت مما كانت تصنع الحكومة فى مغايظة الأمة ... على تلك العهود ألف عفاء !

زكى مبارك وإعجاز القرآن

هذا عنوان الكلمة التى نشرها الأستاذ محمد احمد الغمراوى بمجلة الرسالة ، وهى كلمة مؤذية سبقتها كلمات مؤذيات بقلم هذا الكاتب المفضال

هذا الكاتب يتحدانى لأشرح ما غاب عليه من أسرار كتاب « النثر الفنى » ، وهو يرجو أن يجد فرصة جديدة تؤيد غرامه بانتهامى فى إسلامى

وأقول مرة ثانية إنى لا أقيم لتحديه أى ميزان ، ولن أعترف بأن من حقه أن يساجل صاحب النثر الفنى ، فقد ظهر أنه لم يفهم كتابى

قال هذا الكاتب إنه لا ينبغى إلا أن يعرفنى الناس فيحذرونى ؛ وهذا القول مسروق من كلامى ، فقد نبهت الناس ألف مرة إلى أن يحذرونى ، لأنى لا أبالى فى الحق أى ملام ، ولا ألتفت إلى أوهام المتزمتين

ثم دعانى هذا الكاتب إلى التبرؤ من كتاب النثر الفنى

لبّيك ثم لبّيك ، يا كاتباً يدعو إلى تبرؤ الآباء من نجباء الأبناء

كتاب النثر الفنى كتابى ، وقد استكثره ناسٌ علىّ فزعموا أنه من وحى الجن ، وليس بينى وبين الجنة نسب حتى أستوحى ما عندهم من آراء وأهواء ، فهو كتابى ، وقد سطرته بيمينى فى فورة شبابى ، ولن أتبرأ منه ولو صرت معه إلى جهنم الحامية ، فسأكون به أشرف مذنب يصطلى نار السعير ، وفى جهنم مكان لأحرار الرجال

الجنة لا تستهوينى ، لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب ، وأنا أكره الحياة الخالية من المتاعب

مضيت مرة للبحث عن مكان هادئ فى إحدى ضواحى باريس فوجدت بيتاً كتبت على بابه هاتان الكلمتان : tranquilfité absolue فانزعجت ، لأنى أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون إلا فى مساكن الأموات

وفى بغداد اخترت داراً يجاورها مصنع حديد ، لأفر من الهدوء المطلق

وبنيت دارى بمصر الجديدة فى مكان يجاور ضجيج الحياة ، ولأسمع اشتجار المعانى فى صدر الوجود

ماذا يقع إن كان مصيرى إلى جهنم ؟

تلك فرصة ثمينة أتذكر بها ذنوبى ، وأعرف أن لى وزناً عند فاطر الأرض والسماء ، وهل تكون جهنم نقمة وهى مكان التطهير من الذنوب ؟

ليس الدين هو الباعث على محاربتك ، إياى ، فهنالك باعث آخر هو غرامك بأن يقرن اسمك باسم الدكتور زكى مبارك

أنا مفطور على التسامح ، ولكنى لن أسامحك ، وسأدعو الله أن يغضب عليك ، إلا أن تتوب ، ولن تكون من التائبين

عند الله جزائى ، فقد أكون أول مؤمن يعلن الكُفر ليصحح عقيدة الإيمان ... الله للمجاهدين ، فلا تصدقوا من يزعمون أن الله للمنافقين

الفتنة نائمة

لقينى الأستاذ إميل بك زيدان فى مكتبة المعارف فقال : « الفتنة نائمة » فابتسمت وقلت : « ولعن الله من أيقظها ! » ... فهل فهم جوابى ؟

إنه يشير إلى مقالاتى فى مصاولة بعض أدباء لبنان ، وأنا لم أكتب حرفاً واحداً فى إيذاء الأدباء اللبنانيين ، وإنما يتجنى فريق منهم علينا من يوم إلى يوم ، ويقعون فى أخطاء تنكرها الأذواق ، فهل ثار الأستاذ أميل زيدان على تلك الأخطاء ، وهو يعرف أن إخوانه هنالك هم الموقظون للفتنة والداعون إلى التفريق ؟

لقد تعبت فى معاتبة أولئك الرفاق ، فما استمع مستمع ولا أجاب مجيب ، فهل نلام على تذكيرهم بالواجب ؟ وهل يكون من إيقاظ الفتنة أن نصحح تاريخ الأدب الحديث بعد أن طغى عليه التحريف ؟

سأقول وأقول إن مصر هى باعثة الأدب العربى بعد أن طال عهده بالهجود ، وسأذكر بالتفصيل ما أخذه الأدباء اللبنانيون عن الأدباء المصريين

نحن خلفاء العرب ، والمصحف لا يُطبع إلا فى بلادنا ، وسنرفع راية العروبة فى جميع الميادين

من هؤلاء ؟

جاءت مجلة الأديب البيروتية وفيها اتهام صريح بالدعوة إلى التفريق ، اتهام موجه إلى « عُصبة » تدعو إلى عزل لبنان عن الأمة العربية ، وهى نفسها العصبة التى تتجنى على الأدباء المصريين من حين إلى حين

ولو كنت أعرف أن هذا هو رأى اللبنانيين فى تلك العصبة لكففت قلمى عما جرى فوق صفحات جريدة المصرى

ولهذا أعتذر لحضرة الأستاذ سهيل إدريس وأتلقى عتابه المنشور فى مجلة الرسالة بأحسن القبول

الآن عرفت أن التجنى على مصر لم يكن نزعة لبنانية ، وإنما هو نزوة تطوف برءوس حَرَمها الله نعمة العقل ، وكتب عليها الخذلان

محمد فهيم

اشتركت فى الحفلة التى تقام لتكريم المربى الكبير الأستاذ محمد بك فهيم ، ولكنى لم أستطع الوصول إلى مكان الاحتفال بسبب الزحام ، فلم يبق إلا أن أحييه بهذه الكلمات

إن لهذا الرجل تأثيراً فى حياتى الأدبية ، فهو الذى قهرنى قهراً على السفر لخدمة العلم فى العراق ، وكانت حجته أن وزارة المعارف العراقية طلبتنى باسمى ، وأنه لا يجوز أن أرفض هذا التشريف ، وبهذا قضيت فى بغداد عاماً هو أجل أعوام حياتى

وللأستاذ محمد بك فهيم خصائص يجهلها أكثر الناس ، فهو على تحضره وغناه لا يزال يقيم فى دار أبيه بجوار جامع شيخون ، وهو يتصل بالريف كل أسبوع ، بحيث يجوز أن أن نعده من أعيان الفلاحين

أما أدب النفس فخصيصة أساسية يمتاز بها هذا الرجل المهذب إلى أبعد حدود التهذيب

ولعل هذه الحفلة تردّه بحرارتها إلى قورة العافية ، فقد سمعت أنه كان مريض بضعة أسابيع

محمد فهيم أحد رجالنا الأماجد ، وأنا أشترك فى تكريمه بهذه السطور ، وهى أقل ما يجب لمن يتحلى بمثل أدبه النفيس

زكى مبارك